

نيتشه و إتيقا الحياة

ب. سعاد طيباوي/ جامعة ورقلة

ملخص البحث:

تتناول هذه الدراسة رؤية نيتشه الجمالية للحياة، التي تتأسس على فعل الانتقال من التأويل الأنطولوجي إلى التأويل الأكسيولوجي، ضمن عودة ثقافية للتاريخ الفلسفي الغربي، بحيث تعيد تقييم القيم من جديد بالعودة إلى أصولها، و بداياتها الأولى، و تحطيم كل الأصنام الأنطولوجية التي تستند إليها، أبرزها الدين و الأخلاق. و هذا من أجل بناء تراتب قيمى جديد يخرج الإنسان الغربي من العدمية؛ حالة السلب، و الإنكار المطلق الذي يعيشه، انطلاقا من تراتب قيمى جديد مبني على رؤية أكسيولوجية جديدة تؤسس لنظرة مغايرة لسابقتها حول العالم، تجعل من السؤال الأنطولوجي تابعا للسؤال الأكسيولوجي، و تخضع النظر في الوجود للنظر في القيم، بحيث تخرج الإنسان من حالة الضعف، و العبودية التي أنتجتتهما الحداثة باسم العقلانية؛ بمعنى إعادة بناء علاقة جديدة تحتكم إليها الذات في فرض جموحها على الواقع، و هذا بإعطاء قيمة للأشياء التي كانت تركز في زاوية اللاقيمة، و تقديس الأرض بدل السماء، و النظر للوجود باعتباره معطى جمالي، يتخرج من عنق المأساة، و المعاناة.

Summary:

this study, tackle Nietzsche's view to the aesthetical life, which is based on the transition from ontological to axiological interpretation, by going back to the culture of the philosophical history. This view reevaluates the values again through going back to their origins and early beginnings destroying the ontological idols, especially religion and ethics. This reevaluation is done in order to construct a new hierarchy of values that takes the western man out of nihilism, passivity and the absolute denial that he lives. This new hierarchy of values is based on the new axiological view which establishes for different vision. This vision makes the ontological question follows the axiological question and it makes existence submit to ethics by taking man out of weakness and slavery which are the effect of modernity on behalf of rationality; the sense of re-building a new relation that the person relies on so as to impose his obstreperousness over reality. This is by valorising things which were in the corner of non-valued and sanctifying the earth instead of heaven. In addition Nietzsche' view considers the existence as an aesthetic datum that comes out from tragedy and suffering.

مقدمة:

لم تر فلسفة نيتشه (1844-1900م) (Friedrich Nietzsche) في تاريخ الفلسفة الطويل سوى انحرافا عما كان ينبغي للفكر الفلسفي أن يسلكه، و بالفعل فقد وضعت النيتشافية قُلْبَ المفاهيم التقليدية عن الوجود، الإنسان، الله قَلْبًا جذريًا في قلب رؤيتها التجديدية للفلسفة، و هكذا عَرَفَت فلسفة نيتشه نفسها أنها فلسفة تعيد قراءة تاريخ الفلسفة قراءة نقدية جذرية، لتصبح القراءة الثقافية للعالم أساسا للقراءة الأنطولوجية فرؤيتنا للعالم هي التي تعطينا الأساس القيمي الذي نتعامل بناءً عليه مع كل ما يتحرك، و ينتج حركة في الوجود انطلاقا من رؤية أكسيولوجية قيمة لا أنطولوجية.

هذه التأويلية الأكسيولوجية التي تبناها نيتشه كفلسفة جديدة للحياة الغربية، و إعادة تأسيسية للتراث الغربي، انطلاقا من عودة ثقافية تبحث في الوجود من زاوية قيمية، تبحث في القيم، بحيث تعيد تقييم القيم في حد ذاتها. هاته هي الزاوية التي نظر منها نيتشه إلى الحياة في محاولة منه الانتقال من التأويل الأنطولوجي إلى التأويل الأكسيولوجي، بغية إخراج الإنسان الغربي من حالة الدوغماطيقا المسيحية، و الإنكار المطلق الذي يعيشه بفعل تراكمات تاريخية، و ميتافيزيقية كانت خلاصتها، و نهايتها الكبرى مع الحداثة. ليخلق بذلك فلسفة للحياة تتأسس على اللاعقل، و تنبعث من رحم الفن.

- على ماذا تأسست رؤية نيتشه للحياة ؟ و كيف يمكن فهمها - الحياة - استيطيقيا؟

1- الإنسان الأعلى وخرافة العالم الحقيقي

جاءت فلسفة نيتشه من أجل تجاوز كل النظريات الكلاسيكية التي جعلت من الإنسان مسلوب الإرادة تتحكم فيه قوى فوقية يخضع لها. و الذي يكون في موضع الخضوع، بالضرورة يكون واقعا تحت وطأة الضعف السيطرة، العبودية، و هذا ناتج عن التصور الهرمي الذي يوضع من الإنسان في قاعدة الهرم، و القيم العليا في رأسه. و لهذا أراد نيتشه أن يهدم هذا التصور، و يعيد بناءه من جديد ، و هذا بعودة جينولوجية تحفر في أصول كل ما يستند إلى القيم، من أجل تجاوز الإنسان الضعيف الذي خلقه الفكر اللاهوتي، و خلق إنسان جديد.

فالتنظير النيتشايي يُعارض و بشكل جذري كل التقاليد الكانطية، و الهيكلية. فالواقع بالنسبة لنيتشه لا هو واقع، و لا هو في صيرورة : إنه متتاليات من الظواهر المعيشة، و المدركة ذاتيا من طرف الأفراد. إذن لا

توجد حقائق أو قيم في ذاتها: يتمثل الكائن في إرادته.⁽¹⁾ إن النيتشواوية تضع و بهذه الكيفية، في المحل الأول العلاقة بين الفكر، و الحياة، و تُفسر المعرفة من وجهة علاقتها بالحياة. فالحياة هي التي تشغل المكان الأول و إليها يعود حق السيادة. إنها و هي تعيش في الأشياء كافة ، صيرورة خالصة ، و هذا بعد إرجاع الحقيقة إلى مجراها الطبيعي؛ أي الصيرورة ، و ذلك بأن جعل منها عنصرا وثيق الارتباط بالحياة.⁽²⁾

و فعل الصيرورة الذي يحكم الوجود ليس صيرورة مستمرة لا نهائية، و إنما تأتي فترة يسميها نيتشه باسم " السنة الكبرى "، و عندها تنتهي دورة الصيرورة لتبدأ دورة جديدة، و هكذا دواليك ، فالوجود الزماني مقسم إلى دورات ، و كل دورة تكرار تام للوحدة السابقة عليها ، و توجد هوية تامة بين الواحدة، و الأخرى ، فكأن صور الوجود تتكرر بلا انقطاع في الزمان اللاهوائي، و هذا التكرار يتناول كل التفاصيل، و الجزئيات.⁽³⁾ يقول نيتشه في هذا الصدد على لسان زرادشت : « ما غُرب عنا كلامك يا زارا، فأنت تقول بأن جميع الأشياء تعود أبدا، و نحن معها عائدون، و بأننا وجدنا مرارا لا عداد لها و معنا جميع الأشياء أيضا. »⁽⁴⁾ و في موضع آخر يقول : « أنت تقول بالسنة العظمى المتكررة و هي كالساعة الرملية، تنقلب كلما فرغ أعلاها ليعود أدناها للانصباب مجددا و هكذا تتشابه السنوات كلها بإجمالها، و تفصيلها كما نعود نحن مشاهجين لأنفسنا إجمالا، و تفصيلا في هذه السنة العظمى. »⁽⁵⁾ و هنا تكمن فكرة العود الأبدي التي قال بها نيتشه.

إن المصدر الرئيسي للعود الأبدي في "مولد المأساة" ينشأ من الكيانات المتعارضة التي تمثل كلمات "أبولون"، و "ديونيسوس". فالأبولوني يميز فن النحت، من خلال الحلم الذي يرمز إلى عالم الظواهر الذي ينشأ عن الألم، و ضده الديونيسوسي الذي يمثل فن الموسيقى، و يتميز بالسكر، و هو بذلك يتيح للإنسان الانتقال من الحالة الإنسانية، إلى الحالة الإلهية، فهو يقدم الحل للوجود الظاهر في حالة مأساة. فالأبولوني يجسد الزمني التاريخي، التنبؤ، و الوصول إلى المستقبل، بينما الديونيسوسي يمثل الحالة الأسطورية المأساوية، لتتفي بذلك التحولات الوقتية للإنسان لتجعله يشارك في الصراع الأبدي الكوني.⁽⁶⁾

(1): جان فرانسوا دورتي، فلسفات عصرنا، تر: إبراهيم صحراوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009، ص 512-513.

(2): بيير موتينيبلو، نيتشه و إرادة القوة، تر: جمال مفرج، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، 2010، ص 21.

(3): عبد الرحمن بدوي، نيتشه، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الخامسة، ص 249.

(4): فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، تر: فليكس فارس، مطبعة جريدة البصير، (د-ط)، 1938، ص 188-189.

(5): المصدر نفسه، ص 189.

(6): Faouzia Dhifallah, Temps et Eternel Retour chez Nietzsche, Dogma, 10, 2012, www.dogma.lu, p2.

فهااته الفكرة ؛ أي العود الأبدي ، تعدّ من أهم أفكار نيتشه ، قال بها من أجل أن يُضفي على الحياة قيمة جديدة ، وفيها يواجه الإنسان ضرورة الموت من خلال العلو على منظور الحياة ، وكذلك العلو فوق كل تفسير ميتافيزيقي، و أخلاقي للوجود فيتحرر الإنسان، و يصفو، و يستعيد براءة الصيرورة. كما تلغي فكرة العود الأبدي الفارق بين الحرية، و الضرورة، فيصبح العود الأبدي الفعل الخلاق الذي تمنحه الأبدية للإنسان، و تمتلك النفس الحرية التي تسود بها على ما خُلق، و ما لا يخلق من موجودات العالم.⁽¹⁾

من خلال العود الأبدي يتم تحول الحالة الوجودية للإنسان، حيث يتحول الوجود، و الجد، و الثقل إلى خفة الضحك التي تفوق الإنسان ، و هو يريد الأبدية العميقة في الصيغة القصوى للإرادة. و عليه تصبح فكرة العود الأبدي عند نيتشه دين الأديان، فهي تعبر عن توقع نيتشه لمجيء دين جديد، أو تصور جديد للخلاص فالعود يحل محل الدين، و الميتافيزيقا بالمعنى التقليدي لهما.⁽²⁾

يقول نيتشه في كتابه " إنسان مفرط في إنسانيته " : « لا يوجد في العالم ما من الدين ما يكفي، ليقضي على الأديان. »⁽³⁾ وفي موضع آخر يقول : « حين نفهم كيف تولدت الخطيئة؛ أي عبر قناة أخطاء العقل التي بسببها يعتبر الناس أنفسهم أشرا أكثر مما هم في الواقع، فإننا نشعر بقلبنا، و قد سري عنه ، و يحدث أن يبدوا لنا الناس، و العالم محاطين بهالة مجد البراءة ، التي تريح الإنسان. الإنسان في حضن الطبيعة، طفل بامتياز. أحيانا يرى هذا الطفل في الحلم كابوسا يزعجه، ولكنه حين يستيقظ يجد نفسه دائما في الجنة. »⁽⁴⁾

فنتشه أراد أن ينقد التعاليم التقليدية للدين، و هو يخص المسيحية، و اليهودية ، و لو كان هناك دين كامل، لكان بمقدوره أن يحطم كل المفاهيم الخاطئة التي جاءت بها كل الأديان، و لذا فهو يرى أن الدين ما هو إلا تنظير ميتافيزيقي، فهو ضد كل فكر كهنوتي طقوسي يكبح الإرادة، و يضغن في القوة ، فنتشه مؤقرو الأرض و هي الجنة حسب رأيه، و لا يوجد انفصام، و فرقة بين عالمين ، هناك وجود واحد؛ هو عالم الطبيعة موطن الإنسان الأعلى، و هو الخالق للدين الجديد دين الأرض، و الطبيعة ، و هو إلهه .

الإله في هذا الدين الجديد يعبر عن ذروة القوة، و عنه يصدر العالم بأسره ، إنه الإله في ما وراء حدود الخير، و الشر، موجود في كل لحظة، و بهذا أخذ معنى الإله مع نيتشه تحديدا زمنيا، كما تعبر فكرة العود الأبدي

(1): صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه، دار المعرفة الجامعية، بيروت، (د-ط)، 1999، ص465.

(2): المرجع نفسه ، ص 465-466.

(3): فريدريك نيتشه، إنسان مفرط في إنسانيته، تر: محمد الناجي، إفريقيا الشرق، المغرب - بيروت، (د-ط)، 2002، الجزء الأول، ص82.

(4): المصدر نفسه ، ص 82.

عن رغبة الإنسان الأكيدة في هذا العالم ، و تصبح الأبدية الجديدة تمجيذا لهذه الأرض بوصفها الوطن الذي تتضح فيه الأهمية القصوى للحظة لأنها اللحظة التي يتحقق فيها الخلاص للإنسان ، فيصبح كل شيء خاضعا للإرادة الإنسانية.⁽¹⁾

إذن نيتشه أراد أن يحطم كل الثنائيات الميتافيزيقية التي تخلق عوالم أخرى غير العالم الأرضي، و تفصل الدال عن المدلول، تقضي على الجسد، على كل ما يعطي قيمة للحياة، تجعل من الإنسان لا فعال، نيتشه أراد أن يجعل عالما واحدا، و وحيدا هو العالم الأرضي، بكل ما يحمله من معاناة، و الإنسان هو من يعطي قيمة للحياة من خلال تقويمه للأشياء و إعطائه تراتبا جديدا للقيم يتمشى، و فعل الصبرورة الذي يحكم الوجود في ظل العود الأبدى، بإعطائه الأولوية للحياة.

إن خلق مفهوم جديد للإله من قبل دين جديد يرمي إلى تجاوز كل المفاهيم الميتافيزيقية، و إعادة ترتيب قيمي جديد للوجود، و لكن بتصور جمالي هذه المرة، من خلال صناعة إنسان آخر، إنسان وليد الإرادة والقوة لا الضعف، و العبودية، التي أفقدت الإنسان كرامته و هي السمة التي تميز بها إنسان العصر الحديث نتيجة تراكمات تاريخية تمتد حتى العصور الوسطى جعلت من الوجود معطى غامض يصعب على الإنسان فهمه، و إدراكه.

يقول نيتشه : « السمة الكبيرة للعصور الوسطى: أن فقد الإنسان في نظر نفسه قدرا كبيرا من الكرامة. لطالما كان الإنسان هو مركز الوجود، و بطله؛ ثم حاول جامدا أن يثبت على الأقل قرابته مع جزء الوجود الحاسم الذي يملك قيمته كإنسان مثلما يفعل الفلاسفة الماورائيين، الذين يحاولون الحفاظ على كرامة الإنسان؛ مع اعتقادهم أن القيم الأخلاقية قيم أصيلة. و الذي تخلى عن الإيمان يتمسك بكثير من الصرامة، و الإيمان بالأخلاق.»⁽²⁾ و عليه فالإنسان النيتشواوي هو إنسان تتحكم فيه معطيات هو واضعها، و ليست موضوعة له إنسان يتجاوز لغة الأشياء في ذاتها، و الغايات، بل إنسان لغته الإرادة، إنسان يضفي على الأشياء قيمتها وجودها، و معانيها، إنسان يكون واقعا فوق الظواهر، وليس واقعا تحتها. فغاية التأسيس الفلسفي لنيتشه هي خلق إنسان أعلى متفوق، و هذا لن يتأتى إلا بإخراج الواقع الغربي من العدمية السلبية إلى واقع العدمية الايجابي

(1) : صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه، مرجع سابق، ص 465.

(2) : فريدريك نيتشه، إرادة القوة، تر: محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (د-ط)، 2011، ص 15.

الفعال، الذي لا يرى في الوجود معطى حتمي لا بد من الخضوع له، بل فعل الخضوع يكون موجه له، وليس واقعا عليه .

كما أنّ مفهوم الإنسان الأعلى عند نيتشه يتصل بمفهومين أساسيين هما: العود الأبدي و موت الإله فالإنسان الأعلى هو الذي يمكنه إثبات العود الأبدي، و هو الذي يمر بتجربة العود الأبدي من خلال وجوده الداخلي الخاص الذي يعبر عن إمكانية لا تظهر إلا بموت الإله. فالإنسان الأعلى هو هدف الإنسانية، و أكثر المخلوقات ألوهية. (1)

يقول نيتشه على لسان "زرادشت" (*) (Zarathustra): «أمام الله، لكن الله قد مات، هذا الإله الذي كان يشكل الخطر الأعظم عليكم.» (2) و هنا "زرادشت" يخاطب الراقين، الذين لم يكن وجودهم إلا بعد موت الإله الذي يحمل عدة معاني منها، زوال كل المثاليات المتعالية كالأفلاطونية، كل معاني الميتافيزيقا التقليدية واثبات كل معاني القوة والبطولة في الوجود الإنساني. الذي يجدر بالإنسان المتفوق أن يظهر فيه، نجد نتشه قائلا : «إلى الأمام أيها الراقون، الآن آن للمستقبل الإنساني أن ينبثق، و يظهر، فالإله قد مات، و حان مولد الإنسان المتفوق الذي نرجوا مجيئه» (3) إذن فظهور الإنسان الأعلى مرهون بتوفر جملة من الخصائص و التي تتجسد ضمن العدمية الفعالة التي تتأسس على تفكيك كل القيم الأخلاقية ضمن طرح جنياولوجي، يُسقط الأرضية للادين واللاأخلاق، وهذا بموت الإله، و خلق إله جديد هو الإنسان الأعلى.

الإنسان الراقى اصطلاح عني به نيتشه ضربا من الطراز البشري، اعتدلت طبيعته، و استكملت قوته أوجده ليعارض به اصطلاح الإنسان الأخير، من حيث هو الإنسان الحديث، أو الإنسان الطيب، أو الإنسان العادي الذي قال به المسيحيون، و العدميون. (4)

(1) : صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه، مرجع سابق، ص43

(*) : زرادشت: هو مؤسس الديانة الزرادشتية، عاش في "أذربيجان"، و "كردستان"، و ظلت تعاليمه، و ديانته هي المنتشرة في مناطق واسعة من وسط آسيا إلى موطنه الأصلي "إيران" حتى ظهور الإسلام. اصطدم مذهبه بالطبقة الكهنوتية، كتابه هو "الأفستا" تتميز الزرادشتية بوحي رفيع للخير، والشر. (نقلا عن: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة، 2006، ص 343.)

(2) : Friedrich Nietzsche , Ainsi parlait Zarathoustra , Traduction : Henri Albert , La Gaya Scienza , Paris , 2012 , p 423 .

(3) : Friedrich Nietzsche , Ainsi parlait Zarathoustra, Ibid, p 423.

(4) : محمد الشيخ، نقد الحداثة في فكر نيتشه، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2008، ص 658.

و يجب الإشارة هنا، أن نيتشه لم يبتكر لفظ الإنسان الأسمى أو الأعلى، فالمصطلح موجود قبله، فقد ورد اللفظ في كتابات لأحد المفكرين الساخرين اليونان و هو " لوسيان " (120-180 م) (*Lucian*) ، و كذلك في الجزء الأول من "فاوست" لـ"غوته". ونيتشه كفيولوجي قد قرأ لـ" لوسيان"، لكنه أعطى للمصطلح معنى جديدا.⁽¹⁾ و اختار للتبشير بنموذج الإنسان الأعلى " زرادشت " ، لكن بمنطق يخالف تعاليم "زرادشت" التاريخية تماما، و هذا التبشير يأتي مقرونا بالعودة الأبدية، و إرادة القوة، و ذلك للصلة الوطيدة بين هذا الثلاثي.⁽²⁾

و في كتابه " هو ذا الإنسان " يوضح نيتشه سبب اختياره لـ"زرادشت" دون غيره قائلا : « لا أحد سألني عم يعنيه اسم زرادشت على لساني؛ أي على اللسان اللاأخلاقي الأول، اسم "زرادشت": ما كان يمثل الطابع الفريد الهائل لهذه الشخصية الفارسية عبر التاريخ هو بالضبط نقيض هذا الذي نحن بصددده الآن. لقد رأى "زرادشت" في الصراع القائم بين الخير و الشر الدولاب المحرك للأشياء، إن ترجمة الأخلاق؛ ميتافيزيقيا، على أنها طاقة، و سبب ، و هدف في حد ذاته هي من صنيعه.»⁽³⁾ و هنا اختيار نيتشه لـ"زرادشت" هو من أجل توضيح الخطأ الذي وقع فيه، و هو اعتباره الأخلاق غاية في حد ذاتها. هذا ما عمد نيتشه إلى هدمه، و تحطيمه و تجاوز لغة الأشياء في ذاتها. راميا إلى خلق إنسان راقي، وليد القوة .

في كتاب "هكذا تكلم زرادشت" يعلن "زرادشت" -قناع نيتشه- خطبته الأولى التي تبدأ بالكلمات التالية : « إني آتٍ بنبي الإنسان المتفوق، فما الإنسان العادي، إلا كائن يجب نفوقه. فماذا أعددتُم للتفوق عليه؟ »⁽⁴⁾

من خلال هذا التساؤل لـ"زرادشت" يتضح أن الخطاب المركزي لنيتشه يتمحور حول وجوب تخطي الإنسان الحديث الذي روضته الكنيسة، و جعلته مسالما رحيمًا شفوفا، ينشد الغيرية، و يسعى بكل الوسائل لاجتماع كل ما يبعث في الحياة القوة، و الجمال، و الامتداد.⁽⁵⁾ فـ"زرادشت" يدعو إلى اجتثاث القيم التي تركز الضعف، من إنسان الحداثة، و السمو به إلى الإنسان الأعلى، مع ما تحمله لفظة السمو من تجاوز

(1): عبد الرزاق بلعقروز، نيتشه و مهمة الفلسفة، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2010، ص 208.

(2): المرجع نفسه، ص 207.

(3): فريدريك نيتشه، هذا هو الإنسان، تر: علي مصباح، منشورات الجمل، (د-ط)، (د-ت)، ص 155.

(4): فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، مصدر سابق، ص 6.

(5): عبد الرزاق بلعقروز، نيتشه و مهمة الفلسفة، مرجع سابق، ص 208.

للذات، و إعلاء لكل ما يمجّد قيمها، على أن هذا الإنسان ينتمي إلى العالم الأرضي لا إلى عالم آخر مفارق لا وجود له، فهو وهم لا أكثر.

لقد رأى "زرادشت" السوبرمان أو الإنسان الأعلى أبعد عن أن يكون حتميا ، و إنما هو بالأحرى تحدٍ للروح البشري. و الواقع أن السوبرمان لا يتحقق أبدا إلا أن نيتشه يُصّر على أنه علينا أن نكافح نحو هذا الوضع. و أحيانا يوظف نيتشه صورة داروينية بشكل مغاير : ما القرد بالنسبة للإنسان ؟ صورة ممتعة، أم صورة مؤلمة؟ و هذا هو بالضبط الإنسان بالنسبة للسوبرمان: «جمالية ممتعة أو حيرة مؤلمة.» و هذه الحيرة لن تكون سلف متحجر أدنى وراثيا؛ بل ربما كان بدلا من ذلك نتيجة التغير في حياة أفراد جزئيين.⁽¹⁾

فالهدف الحقيقي ليس هو الوقوف عند إنسان "داروين" (1809-1892م) (Charles Robert Darwin) ، لأن المقياس الوحيد للقيمة الإنسانية هو إرادة القوة ، بما هي نزوع نحو الهيمنة.⁽²⁾ أي قدرة الإنسان على التحكم في الأشياء. «لأن من الواضح أن تحدي السوبرمان يحتاج إلى موقف ذهني وجد نيتشه أنه غائب عن ثقافته، و مثل هذا الموقف الذهني يحتاج إلى مستوى غير عادي من الشجاعة. "زرادشت" يسميه إرادة القوة، و لقد التقى نيتشه بهذه الفكرة عند "شوبنهاور".»⁽³⁾ فنيته يوظف النظرية البيولوجية كأساس، غايته تكريس التراتب الاجتماعي، فهو يضع إشارة مماثلة بين تطور الإنسان البيولوجي من حيث هو نوع، و الحركة الاجتماعية في العصر الحديث ، فالنتيجة هي أن ارتفاع بعض الكائنات المختارة فوق جمهرة البشر، يجب أن يكون لا أكثر، و لا أقل من صعودهم إلى قمة السلم، و تكون أسطورة الإنسان المتفوق نفسها عملية منهجية غايتها تكريس التراتب الاجتماعي برمزية بيولوجية.⁽⁴⁾

● إذن يمكن وضع الإنسان الأعلى، بوصفه يختلف عن النماذج الأخرى في إطار النقاط التالية:

- 1- أن الإنسان الأعلى، ليس نموذجا مفارقا لعالم الحياة، و الأرض.
- 2- أنه ليس حلقة جديدة في سلسلة تطور الكائنات الحية، على النحو الذي نجده عند إنسان "داروين" عن طريق الانتخاب الطبيعي .

(1) : لورانس كيتي شين، أقدم لك نيتشه، تر: إمام عبد الفتاح إمام، دار الكتب المصرية، مصر، (د-ط)، 2002 ، ص 83-84.

(2) : نبيل عبد اللطيف، فلسفة القيم، التنوير للطباعة و النشر، بيروت، (د-ط)، (د-ت)، ص 37.

(3) : لورانس كيتي شين، أقدم لك نيتشه، مرجع سابق، ص 88.

(4) : عبد الرزاق بلعقروز، نيتشه و مهمة الفلسفة، مرجع سابق، ص 211.

3- أنه في تعارض مع الإنسان الحديث الطيب مع المسيحيين، و غيرهم من العدميين خاصة حينما يتلفظ به "زرادشت"، فإنه يدعو كثيرا للتفكير .

4- أنه لا يتقيد بالحدود الأخلاقية الموروثة، و معايير التقويم الخير، و الشر.⁽¹⁾

نلاحظ أن فكرة الإنسان الأعلى التي جاء بها نيتشه ذات طابع مثالي لا تجد تطبقا لها على الأرض لأنه لا يمكن الحديث عن الإنسان في غياب الأخلاق و الدين، فالإنسان حتى و إن لم توضع له حدود أخلاقية-دينية، يضعها هو لنفسه، فالإنسان دائم البحث عن قوى خارجة عن ذاته، و لعل المرحلة الأسطورية من التاريخ اليوناني، و حتى التاريخ ما قبل اليوناني، تؤكد هذا. بحيث نجد الإنسان قبل مجيء الديانات السماوية اختلق آلهة لنفسه، وهذا دليل على ضرورة، و حتمية الدين، و الأخلاق للإنسان، فلا يمكن للإنسان أن يتفرد بالقوة، و السيطرة. ناهيك عن الشروط البيولوجية، و الفيزيولوجية التي وضعها نيتشه من أجل خلق الإنسان الأعلى، فهي لا تجد تحقيقا على أرض الواقع.

فالمثالية التي ينتقدها نيتشه، نجده في نفس الوقت يجعل منها غاية كل فلسفته. فهل فعلا ستتحقق فكرته حول الإنسان الأعلى ؟ أم أنها مجرد يوتوبيا يُنظر لها نيتشه كي تجد تحقيقها في سماء المثل ؟ قد تتحقق كما أنها قد لا تتحقق. تبقى مجرد تنظير ينتظر التطبيق، قد يجد مكانا له في الصيرورة الزمانية. لكن نيتشه يعي جيدا أن مقولة الإنسان الأعلى لا تجد تحققا بمنطق العقل، لهذا نجده ينتقد العقل، و بشدة، و يحمله كل ما آلت إليه الحضارة الأوربية من ضعف، و انحطاط بسبب مركزية العقل التي أدخلت الإنسان الأوربي في غياهب العدمية و جعلته يعيش حياة يغلب عليها الطابع الإنكاري المطلق. و لا سبيل للخلاص من هاته الحالة التي كرسها العقل الحدائي إلا الفن و مركزية الغريزة لا العقل. فالإنسان النيتشواوي عبد للشهوة، و ليس العقل، فالعقل هو مَكمن ضعف الإنسان، لأنه يجعله يخلق عوالم لا وجود لها، تتحقق فيها المثالية حسبه و لا تتحقق في العالم الأرضي فيحدث بينه وبين واقعه انفصام، و طلاق، و نكران، فيعيش مسلوب الإرادة و القوة. كائنا لا فعلا بل مفعول به في كل الحالات.

2- التصور الجمالي للوجود

(1) : المرجع نفسه، ص 212.

الفن هو الآلية الوحيدة التي يمكن من خلالها معاشية الوجود، و تجاوز أصنام الحداثة في ظل أوهام الفن فالتأويل، و الفهم العقلي للوجود غير ممكن في نظر نيتشه، فطريق إدراك الوجود هو الفن، و هذا الذي كان حاضرا في الميثولوجيا التراجيدية الإغريقية التي نظرت للعالم بعيون فنان، بزاوية جمالية رأت فيها الخلاص من براثن الوجود. هذا هو السبب الذي جعل نيتشه يعتبر الفن هو أحسن وسيلة لمواجهة هذا الوجود المأساوي، و الغامض، و المستغلق على فهم الإنسان.

نظر نيتشه في كتابه " هكذا تكلم زرادشت " على أن الإنسان سمي إنسانا لأنه قوّم الأشياء، و قدّر قيمتها و وزنها، و وضع لها ثمنا : فهذا أمر رفيع و ذاك شأن حقير، فالإنسان ما هو إلا الكائن المقدر أو المقوّم بامتياز فهو الذي وهب الأشياء معانيها الإنسانية ، و لولا أن ملأ الإنسان الوجود بتقويماته قياساته ، لما كان الوجود برمته قشور لا نواة فيها ؛ أي عديم الدلالة.(1)

فالعالم النيتشواوي ليس ذلك العالم الذي يحتضن أشياء بل أفعالا، و ردود أفعال، أي أن الوجود لا يكشف عن نفسه، و إنما ينكشف حينما تسقط الذات ذاتيتها على موضوعاته، فالإنسان يكون موضع إيجاب أمام الظواهر، و ليس موضع سلب، كما نظرت لذلك الهيجلية.

إذن بعد أن كانت الفلسفة منذ " أفلاطون" إلى "هيجل" تنزع إلى غاية عليا، و كلية باحثة عن تجليات الحقيقة المطلقة بوصفها السلطة العليا بمنأى عن كل شك، و نقد ، تنحرف مع نيتشه عن تلك الماهية، و الغاية لكي يُجابِه العقل الفلسفي، الوجه الآخر للعقل، بوصفه الوجه المعارض.(2) و لقد أدرك نيتشه في تعامله مع أنماط الثقافة الإنسانية، خاصة الدين و الأخلاق، و الميتافيزيقا، أنه يتعامل مع لغة تعكس الفكر الإنساني، و هي لغة لا تقول حقيقة ما تعنيه، و المعنى الذي يظهر، و يتجلى مباشرة، قد لا يكون معنا ظاهرا، أو ضعيفا يخفي آخر و يحتويه ، على أن يكون المعنى المضمّر، و المخفي هو المعنى الأقوى.(3)

فنييتشه أراد أن يُقر بوجود عالما واحدا ووحيداً، و هو العالم الموجود فعلا؛ أي العالم الظاهري الذي تعتبره الميتافيزيقا، و اللاهوت وهماً، و عالم المثل هو العالم الحقيقي، على أن نيتشه لا يعترف بوجوده، لا وجود لعالمين بالنسبة له. هناك عالم واحد فقط هو عالم الأرض، و بما أنه قابل لعدة تأويلات فما هو إلا المظاهر التي تتجلى

(1) : محمد الشيخ، نقد الحداثة في فكر نيتشه، مرجع سابق، ص 291.

(2) : وفاء درسوني، مفهوم التأويل في فلسفة نيتشه، إشراف: جمال مفرج، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005 - 2006 ، ص 8. (رسالة ماجستير غير منشورة)

(3) : المرجع نفسه، ص 16.

للعيان. فمقولة العالم الحقيقي ما هي إلا خرافة بالنسبة لنيتشه ف « العالم الحقيقي، الذي يسهل بلوغه على الإنسان الحكيم، الورع، الفاضل يحيا فيه إنه هذا العالم.»⁽¹⁾ فلا توجد عوالم أخرى بالنسبة لنيتشه غير العالم الأرضي.

من خلال التأويل، يطرد نيتشه أفق الحداثة، من أجل امتلاك جديد للحقيقة، لأن غاية التأويل ليس التدمير فحسب، وإنما هي نصر الشك على الوعي للمطالبة بالمعنى على العكس من الديكارتية، و في المقابل يؤمن ببداهة الوعي و يقينه. و لما كانت مهمة الفيلسوف السابق هي البحث عن الحقيقة المطلقة، فإن الضرورة تستلزم حسب نيتشه ، أن يتحول الفيلسوف إلى مؤول، و تقلب غاية الفلسفة من بلوغ الحقيقة إلى حل مشكلة التقييم ، و إلى تحديد سلم القيم، و مراتبها. و الفلسفة بأكملها هي: « علم أعراض، و نظرية عامة للعلامات، حيث يتجلى معنى العلامة في القوة الحالية التي تتحكم في تأويلها.»⁽²⁾

و من أجل الخروج عن كل التقاليد الغربية قال نيتشه بضرورة التخلي عن فكرة الحقيقة المطلقة، و ذلك بدم الارتكاز الذي تستند إليه حيث يقول في هذا الصدد في مؤلفه " أصل الأخلاق " : « نحن أيضا، بدورنا مفكرو هذه الأيام الذين يبحثون عن المعرفة، نحن الملحدون، و المناوئون للميتافيزيقا، نحن أيضا ندلي بدلونا في حمى هذا الوطيس الذي أشعله إيمان يعود إلى آلاف من السنين. ندلي بدلونا في هذا الإيمان المسيحي الذي كان أيضا إيمان " أفلاطون". إذ نعتقد أن الله هو الحقيقة ، و أن الحقيقة إلهية (...) ، ماذا لو تبين الله نفسه هو كذبتنا.»⁽³⁾

من خلال قول نيتشه هذا، يتضح أن الفلسفات الكلاسيكية تؤمن بأن أصل الحقيقة هو الله ، و حتى اللائكيين، و الرافضين للماورائيات لهم تصور لاهوتي للحقيقية، لكن حسب نيتشه نقد هذه الحقيقة لا يكون بالدحض النظري للحجج النظرية التي تثبت وجود الله، لأن المثل الأعلى لا يمكن دحضه نظريا ، و إنما بالنقد الجنيالوجي الذي يتمثل في استئصال الأحكام الأخلاقية، و القيمية المسبقة التي تتستر وراء مفهوم الله.⁽⁴⁾ أي أن

(1) : فريدريك نيتشه، أفول الأصنام، تر: حسان بوقرية و محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1996، ص 33.

(2) : وفاء درسوني، مفهوم التأويل في فلسفة نيتشه، مرجع سابق، ص 7-8.

(3) : فريدريك نيتشه، أصل الأخلاق و فصلها، تر: حسن قبيسي، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت، (د-ط)، (د-ت)، ص 146-147.

(4) : بيير مونتبييلو، نيتشه و إرادة القوة، مرجع سابق، ص 20-21.

فكره الله ما هي إلا تظليل لبنى دغماطيقية قيمية وعلى رأسها الأخلاق، و الدين، تخضع الإنسان لها، وتجعله مسلوب الارادة، أمام الإرادة الإلهية التي تقدم كغطاء يخفي حقيقة هذه الأنسجة القيمية.

و لهذا تعتبر الجينالوجيا التي يعرفها نيتشه في كتابه "جينالوجيا الأخلاق " على أنها: « معرفة شروط و ظروف نشأة القيم، وكذا تطورها، و استحالتها عبر التاريخ.»⁽¹⁾ كآلية لتجاوز الميتافيزيقيات الكبرى و الأساس القيمي الذي تستند إليه. و ذلك عبر الصعود إلى البداية الأولى للفلسفة، و إلى النسيان الذي يوجد في أصل نشأتها، و يجعل منها مجرد سوء فهم للجسد.⁽²⁾

و هنا مفهوم النسيان هو الأساس، بما أن الإنسان خلق مملكة القيم هذه التي هي إسقاط لحوائجه و إنزال لرغباته و مناه، ثم هو نسي ذاك، أو أنسته إياه إرادة الحياة. و حسب نيتشه على مفكر القيم استعادة ذكرى ذاك النسيان، لا من أجل إحقاق الحق، و إنما بغاية معرفة حيوية النسيان، و فائدته للإنسان.⁽³⁾

و ذلك بإعادة على نحو مفصل ، العلاقة بين العقل، و الجسد، بين المفهوم، و الإحساس، بين الدال و المدلول، لتمكين التفكير من أن يحيا من جديد خارج الثنائيات الميتافيزيقية، و فيما وراء أسيجة النحو أو المنطق، و الحقيقة، أو اليقين، و العقيدة، أو الاعتقاد ، و داخل بناء جديد فضاءه ليس سماء المثل الأفلاطونية و لا كهف الفلسفة ما قبل السقراطية ، و إنما هو السطح العميق في سطحته، إنه العالم الأرضي حيث قيمة الحياة.⁽⁴⁾

بهذا أراد نيتشه أن يُخرج الانسان الغربي من حالة الإنكار المطلق التي يعيشها، من خلال إعادة الروح إلى الفن التي قتلت بسبب ثلاثي: الحقيقة، و الموضوعية و التاريخ الذي تولّد عن فعل الحداثة. و هذا من خلال فهم المأساوي للحياة، الذي يضرب في كل محاولة أخلاقية تريد أن تضع تبريرا أخلاقيا للعالم. لأنه إذا حُصر العالم ضمن رؤية أخلاقية، أو عقلية فيصبح بذلك الإنسان في حالة تنافر، في حالة لا رضا مع الحياة، و يصبح يبحث عن عوالم أخرى تحتكم إلى مصوغات أخلاقية تتعالى على الدناءة، و الوضاعة، و القسوة التي تُخيم على الوجود.

(1) : محمد الشيخ، نقد الحداثة في فكر نيتشه، مرجع سابق ، ص 290.

(2) : محمد أندلسي، نيتشه و سياسة الفلسفة، دار توبيقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2006، ص21.

(3) : محمد الشيخ، نقد الحداثة في فكر نيتشه، مرجع سابق، 290.

(4) : محمد أندلسي، نيتشه و سياسة الفلسفة، مرجع سابق، ص ص 21-22.

فنيته يُدين مفهوم الحداثة المؤسس على نظرية السلطة لنقد يكشف عن تضليل عقل، يستثني نفسه من أفق العقل، فالعقل حسب نيته مخادع كبير لأنه يفلح في إخفاء مضمراته التي هي خليط من الأحكام المسبقة، و من الأوهام و المعتقدات.⁽¹⁾

لقد أخذ النقد النيتشواوي للحداثة اتجاهين هما: البحث عن اتجاه انحراف إرادة القوة، و ثورة قوى الرد و تكوين العقل المتمركز حول الذات.⁽²⁾ يحرك نيته، و يخلخل الثقافة الغربية المتمركزة حول العقل من خلال ثنائية أبولون/ العقل، و ديونيسوس/ الجنون، إذ يرى نيته أن الثقافة الغربية هي ثقافة عقلية؛ بمعنى أبولونية أهملت الوجه الآخر لـ "أبولون"، فالحضارة الغربية عند نيته هي حضارة أبولونية عقلانية لا بد من تقويض مركزها حول ذاتها، لأنها تحمل في ذاتها ميتافيزيقا الحضور.⁽³⁾ لقد كلّف نيته أسطورة "ديونيسوس" التي تجددت بواسطة الجماليات بمهمة تجاوز العدمية.⁽⁴⁾

لهذا تمحورت قراءات نيته المبكرة، حول موضوع التراجيديا اليونانية، التي يبدو من خلالها أنه أراد أن يوسع حدود الرؤية التراجيدية كي تشمل الوجود أيضا، انطلاقا من قراءاته التأويلية للفكر اليوناني في مرحلته المعروفة بـ: "ما قبل السقراطية"، على ضوء الفهم التراجيدي. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا كيف يمكن فهم العالم من خلال التراجيديا؟ أو ما هي الآليات التي اعتمدها نيته من أجل تصور الوجود في ظل التراجيديا ؟ أو بصيغة أخرى كيف يولد العالم من رحم المعاناة؟.

إذن فلنيتشه رؤيته المخصصة للتراجيديا، و هو يضعها فوق كل تعميم، كما يرفض تنظير فلاسفة اليونان أنفسهم لها، على أن للتراجيديا مفهوم يرى نيته أنه هو أول من لامسه، و وضعه في إطاره المميز، فقد نظر إلى التراجيديا من الزاوية الأصح على حد رأيه، على أن أغلب الفلاسفة الإغريق رأوا العتمة في الأسطورة الإغريقية، لكن نيته رأى العكس من ذلك، ف«المواضع الوحيدة التي تتألق فيها حياة الإغريق هي تلك التي يبرها شعاع الأسطورة؛ أما المواضع الأخرى فهي معتمة.»⁽⁵⁾ فالتنوير اليوناني كان في المرحلة الأسطورية برأي نيته، و ليس بعدها كما نظر لذلك أغلب الفلاسفة.

(1) : المرجع نفسه، ص 38.

(2) : يورجن هابرماس، فلسفة القول الحدائي، تر: عمر مهيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2010، ص 159.

(3) : مديحة دباي، ما بعد الحداثة، إشراف و تقديم: علي عهود المحمداوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2013، ص 149.

(4) : يورجن هابرماس، فلسفة القول الحدائي، مرجع سابق، ص 162.

(5) : فريدريك نيته، إنسان مفرط في إنسانيته، مصدر سابق، ص 145.

فالتراجيديا قد وُلدت عندما صار يتم النظر إلى الأسطورة بعين المواطن، لكن عالم الأسطورة ليس وحده الذي يفقد كثافته و يذوب بفعل هذه النظرة، فتأثيرها يطال أيضا عالم المدينة الذي يصبح موضع تساؤل، بل و من خلال الجدل، و النقاش موضع رفض، و تشكيك فيما يشكل قيمه الأساسية. و حتى بالنسبة لأكثر التراجيديين تفاؤلا، حتى بالنسبة لـ"اسخيلوس" يبدو التغني بالمثل العليا المدنية، و تأكيد انتصارها على كل الأشكال الأخرى من الماضي نوعا من الأمل، و الدعوة أكثر منه نوعا من الإقرار، و الثقة الهادئة.⁽¹⁾ فالتناحر بين الأسطورة، و أشكال الفكر الخاصة بالمدينة الصراع داخل الإنسان، و الصراع بين القيم، و الصراع في عالم الآلهة؛ الطابع الالتباسي، و المبهمة للغة. كل هذه الصفات المميزة تطبع التراجيديا اليونانية بشكل قوي.⁽²⁾

يقول نيتشه: « القول إن الحياة مأساة لا يجدي على الأقل في تفسير أصل الفن، شريطة ألا يكون الفن مجرد محاكاة لحقيقة الطبيعة بل هو تابع لتلك الحقيقة، و متعايش معها بمهدف التغلب عليها.»⁽³⁾ بمعنى أن التراجيديا حينما تُؤوّل الوجود في شكل فني، فلا بد أن يكون هذا البعد الفني تابعا للوجود. وإذا كانت التراجيديا ترجمة لتجربة مأساوية في شكل فني، هذا سيفضي بالضرورة إلى أن للتراجيديا بعدين مختلفين كل الاختلاف، في جوهر واحد؛ مأساة ممتعة، أو آلام في ثوب فني جمالي. لكن بأي شكل من الأشكال تكون للمأساة جمالية؟ يبحث نيتشه هنا عن الجمالية التي تنبثق من التراجيديا تعبيرا عن الحياة.

على أن هذه المهمة التي يتولاها التراجيدي، و هي عد الفن جزء من الوجود بل أكثر من هذا آلية لتغييره، و قلب العبثية، و الفضاة إلى فن، و جمال، و هذا النوع من الرجال الفنانين، أو التراجيديين شبههم نيتشه بالرجال الميالة عقولهم للحرب، و هذا النوع صعب هز مشاعره كالإغريق زمن "إخيل" (*) (Achilles) حتى و« إن لانت قسوتهم بدافع الشفقة، فإن شكلا من الدوخة يصيبهم كقوة شيطانية، فيشعرون عندها أن شعورا دينيا يهزمهم، و يجبرهم على الرحمة. بعد برهة يُبدون تحفظهم بخصوص تلك الحال؛ وبما أنها انتابتهم فإنهم يستمتعون بالبهجة التي توفرها لهم النسوة، و الشيء العجيب مزوجة بمرارة المعاناة.»⁽⁴⁾

(1): جان بيبير قال، الأسطورة و التراجيديا في اليونان القديمة، تر: حنان قصاب حسن، دار الأهالي، دمشق، الطبعة الأولى، 1999، ص 25

(2): المرجع نفسه، ص 38.

(3): فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، تر: شاهر حسن عبيد، دار الحوار للنشر و التوزيع، سورية، الطبعة الأولى، 2008، ص 256.

(*) : إخيل: أحد الأبطال الأسطوريين في الميثولوجيا الإغريقية، كان له دور كبير في حرب "طروا"، و هو البطل المركزي في إلياذة "هوميروس" (Homère).

(4): فريدريك نيتشه، الفجر، تر: محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (د-ط)، 2013، ص 226-227.

بمعنى أن التراجيدي لا يخضع للضعف، بل طباع القوة تميزه، حتى وإن كانت هناك دوافع قد تجبره على الضعف، فإنه سرعان ما يتفطن لها، فيدرك أن الشعور الديني الأخلاقي هو المتخفي وراء حالة الضعف التي تنتابه و بالتالي يتحفظ منه، ليشعر بعدها بالسعادة التي توفرها الرغبة، و النشوة الناتجة عن الغرائز، التي تخلقها من قسوة المأساة، و الألم، و هذا ما يميز الفنان التراجيدي، يخلق من الألم لذة بفعل النشوة. إذن فالتراجيديا معاناة ممزوجة بالنشوة و هذا يعني أنها لا تولد في أحضان العقل بل تتجه إلى كل ما هو لا عقلاني، فالوسط الذي تنشأ فيه التراجيديا لا يمكن له أن يكون مُنطقاً. « أليس أكثر إلزاماً على حقيقة ما أن يمنحها شاعر تصديقتها، على أن يخالفها. لأنه كما قال "هوميروس": الشعراء يكذبون كثيراً. »⁽¹⁾

فالتراجيدي يتجاوز الوقائع، و عليه كما يقول نيتشه: « الإحساس بالتراجيدي يقوى، أو يضعف مع الشهوانية. »⁽²⁾ ؛ فالتراجيديا تتميز بالطابع اللاعقلاني؛ و بالتالي تتحكم فيها الغريزة، و قوتها في الشهوة. لهذا يعتبر نيتشه أن « المتعة التي تقدمها التراجيديا تميز العصور، و الطباع القوية: و ربما تكون ذروتهم هي الكوميديا الإلهية. الأبطال هم الذين يقولون نعم لأنفسهم في خضم القسوة المأساوية: إن لهم من الصلابة ما يكفي لاعتبار المعاناة لذة. »⁽³⁾ فهم لا يخضعون لمعطيات الواقع ويتقبلونها كما هي بل يتجاوزونها، بخلق اللذة من المعاناة التي تميز الواقع. لكن كيف يمكن للبشاعة، و التنافر كمضمون للميثولوجيا التراجيدية، أن يولّد المتعة الجمالية؟.

إن المأساة التي تحملها التراجيديا؛ المأساة الجمالية، يتحول فيها ما تخلقه الحياة من أمر فظيع إلى نازع جمالي فني؛ أي إلى لعبة طفل. « لكن ما هو الشيء الذي تحوله إذا كانت تقدم لنا عالم الظاهر في صورة البطل المتألم؟ و على الأقل تغيير الواقع، واقع هذا العالم الظاهري. »⁽⁴⁾ المتفطن إلى هذا الأمر يقف بنظره على المبدئين اللذين وجها الفن اليوناني؛ بل الحياة اليونانية بأكملها؛ المبدأ الديونوسيوسي، و المبدأ الأبولوجي⁽⁵⁾، و هو ازدواج يفيد التعارض بين الصوفي- الذوقي و العقلي البرهاني، بين الشعوري المنير، و اللاشعوري المظلم، بين الإرادي و المنطقي، بين المقيد المحدد، و المتحرر الطليق.⁽⁶⁾

(1) : فريدريك نيتشه، العلم المرح، تر: حسان بوقرية و محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1993، ص 103.

(2) : فريدريك نيتشه، ما وراء الخير و الشر، تر: موسى وهبه، دار الفارابي، بيروت، (د-ط)، (د-ت)، ص 120.

(3) : فريدريك نيتشه، إرادة القوة، مصدر سابق، ص 255.

(4) : فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، مصدر سابق، ص 256.

(5) : محمد الشيخ، نقد الحداثة في فكر نيتشه، مرجع سابق، ص 675.

(6) : عبد الكريم عنيات، قراءة نيتشه للفلسفة اليونانية، إشراف: جمال مفرج، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009-2010، ص 36. (مذكرة ماجستير غير منشورة).

الديونوسيوسي هو النازع الذي يوقظ في المرء زوبعة الوجود نفسه، فيعبر عن ذاته بالهوى، و الرقص و الغناء. و هو مبدأ السكر، و العريضة، و الحياة الجنسية الصاخبة. بينما الأبولوجي الذي يوقظ ملكة الرؤية و النظام، و الإبداع، إنه مبدأ الحلم، و الرؤية، و السكينة. كلاهما يجد أصله في الحياة: السكر، و الحلم. (1) و يتحتم « الاعتراف بنبالة الأهداف الفنية في العالمين الديونيسي، و الأبولوجي في إطار العلاقة الأخوية بين هاتين القوتين المقتدرتين. » (2)

إنّ المبدئين اللذان حكما الرؤية اليونانية للوجود كان مبناهما على هذه العلاقة؛ فالأبولوجي المبني على التفاؤل، و الشكل، و الانسجام المرئي، استنادا للفهم العقلي، يساعد في الحد من لا معقولة "ديونسيوس". لكن ما هي الآثار الجمالية التي تنجم، حينما يحصل انفصال بين هاتين القوتين، أو بعبارة أخرى، ما الذي يترتب عن تقابلهما بدل اتساقهما؟ ثم، ما علاقة الموسيقى بالصورة، و المفهوم؟.

يجيب "شوبنهاور" فيرى أن الموسيقى تتميز عن باقي الفنون كونها لا تمثل الظاهرة فحسب، بل إنها نسخة من الإرادة ذاتها. إن الصور والمفاهيم والمشاعر تحظى بتقدير عالي القيمة، في ظل تأثير الموسيقى؛ ففن "ديونسيوس" إذن يؤثر في الموهبة الأبولوجية بطريقة مزدوجة: أولاً؛ تحت الموسيقى على الحدس الرمزي للروح الديونوسيوسي، ثانياً تُحيي تلك الصورة مغزى عالياً. (3) و يؤكد نيتشه العلاقة الضرورية التي تربط الموسيقى بالميثولوجيا في قوله: « في ضوء هذه العلاقة الوثيقة جداً بين الموسيقى، و الميثولوجيا يحق لنا أن نفرض أن انحدار، و تدهور أحدهما يرتبط باضمحلال الآخر، و أن إضعاف الميثولوجيا تعبير عن إرادة إضعاف الإمكانيات الديونيسية. » (4) بمعنى أنه لا يمكن الحديث عن قوة الميثولوجيا في غياب الموسيقى، فهي التي تكسبها قوة، لأنها تمثل الإمكانيات الديونيسوسية، فانحطاط الميثولوجيا من انحطاط الديونيسوسية. لأن المبدأ الديونيسيوسي يعمل على خلق النشوة، و اللذة في ظل المأساة بالمنظور التراجيدي للوجود.

فالرؤية التراجيدية، و المأساوية للحياة تفرض على الإنسان تقبل الوجود بقسوته بل الأكثر من ذلك تجعله يتمتع بتلك القسوة. من خلال تقبل حقيقة الحياة؛ أولاً: على أنها تحمل تلك المرارة، و البشاعة. ثانياً التحايل عليها من خلال جعل صورة الحياة مقبولة لدى الإنسان، و كل هذا لن يتأتى إلا في ظل الرؤية الجمالية

(1) : محمد الشيخ، نقد الحداثة في فكر نيتشه، مرجع سابق، ص 675-676.

(2) : فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، مصدر سابق، ص 254.

(3) : لورانس جين وكيثي شين، أقدم لك نيتشه، مرجع سابق ص 19.

(4) : فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، مصدر سابق، ص 258-259.

للعالم التي تجسدت بشكل جلي في التراجيديا الإغريقية، حسب الطرح النيتشاوي. و«الحال أن التراجيديا اليونانية مترتبة عن تداخل هاتين القوتين الطبيعيين: القوة الديونيسوسية، بما هي الرغبة في المبالغة، و في الأمر المعقد، و غير اليقيني، و القاسي الفظيع، و المتقلب، و الغريب الأطوار، و القوة الأبولوجية بما هي مبدأ الاعتدال و البساطة، و الظاهر و الخضوع للقاعدة، و الانتظام في المفهوم.»⁽¹⁾

يُلاحظ من خلال قراءة نيتشه للتراجيديا اليونانية، أنه يفصل بين خطابين، أحدهما فلسفي عقلي و الآخر ذوقي فني، وهذا بناء عن أصل المأساة الإغريقية، التي أفضت إلى أن الفكر، و الثقافة البشرية تتمخض عن الثنائية التالية: **تجربة عقلية - تجربة جمالية**، لكن نيتشه جعل من التجربة الجمالية، أساسا للوجود بينما لم يعط التجربة العقلية سوى دورا ثانويا.

فالاحتفاء النيتشاوي بـ"ديونيسوس" باعتباره المقوض لسلطة العقل؛ فهو لحظة الجنون، و السكر و المذهب للعقل، و بالتالي لا بد أن من تقويض؛ العقل/ الإله/ الوعي / المعنى. يمثل "أبولون" إرادة فصل الشعر عن الموسيقى، و الكلمة عن رنينها، و الجسد، و رمزيته، و المسرح، و أبعاده المادية، و يتمرد نيتشه على الأبولوجي العقلي، و دعوته إلى الديونيسوسية اللاعقل في الفلسفة، و الفن بعامة.⁽²⁾ لماذا وضع نيتشه هذا التفاضل بين الرؤية الجمالية، و الرؤية العقلية؟

لم يحصر نيتشه أسلوبه في نطاق التعبير العقلي المعتدل، بل هز بعنف القفص الحديدي للغة. فقد كان يؤمن مثل الشاعر " شلر " (Schiller) أن هناك ميلا موسيقيا معينا للذهن، يظهر أولا ثم تعقبه بعد ذلك الفكرة الشعرية.⁽³⁾ و بما أن الأسطورة هي مادة العمل المسرحي التراجيدي، فإنها تُقدم في صيغ و أشكال متعددة، منها الشعر، و التمثيل، و الموسيقى، و تعتبر الموسيقى أكثر الأشكال أهمية للعمل المسرحي، و الحياة كلها، على أن نيتشه يصف الحياة دون موسيقى على هذا النحو: « فعندما فقدت التراجيديا عبقرية الموسيقى ماتت التراجيديا بمعناها الأدق.»⁽⁴⁾ بل أكثر من هذا؛ الإله ينشد على حد تعبيره في مؤلفه " أقول الأصنام " : « كم تتوقف السعادة على القليل من الأشياء! يقول صوت مزمار القرية... دون موسيقى تغدو الحياة خطأ. إن

(1) : محمد الشيخ، نقد الحداثة في فكر نيتشه، مرجع سابق، ص 676.

(2) : فتيحة دباي، ما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص 149.

(3) : لورانس جين و كيتي شين، أقدم لك نيتشه، مرجع سابق، ص 16.

(4) : فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، مصدر سابق، ص 204.

الألماني بنفسه يتصور الإله بنفسه يزنل الأناشيد»⁽¹⁾ على أن نيتشه هنا حينما يضع تصويرا للإله، و هو في حالة الإنشاد التي تعكس حالة الفرح، و الابتهاج، فهذا تأويل للمثل العليا التي تختلج الذات الإنسانية انطلاقا من الرفض، و الإنكار للعالم، و الواقع المأساوي للحياة.

إنَّ الأهمية التي يوليها نيتشه للموسيقى كونها المثل الأعلى لفهم العالم، راجع إلى خاصية التنافر التي تميز الموسيقى، و المغزى الذي تنشده هاته الخاصية، بحيث أن نيتشه جعل الموسيقى في المرتبة الثانية بعد العالم، لتمكن بذلك من القول أنه لا يمكن فهم العالم إلا بأسس جمالية تبرر وجوده حسب نيتشه، فالرغبة في سماع الموسيقى و الجنوح نحوها، و معرفة أسباب ذلك، يدرجه نيتشه ضمن النضال نحو اللانهاية، الذي يكون على محمل خفق جناحين، بروح نشوة اكتشاف وضوح الواقع، وهذا ما يتجسد في الديونيسية. فالروح في كل مرة « تبني بصورة عابثة عوالم الأفراد ومن ثم تهدمها كبناء جاء ثمرة للمتعة الأزلية.»⁽²⁾ وهنا مكمّن معنى الصيرورة الهيروغليفية.

كما يرى نيتشه أن المعاناة شكل جديد من الوعي الجمالي. ليشير إلى أن النظرة المأساوية إلى الحياة ليست طريقة من طرق التفكير في العالم، و إنما هي بالدرجة الأولى طريقة لإدراك العالم، و الموسيقى هي الوحيدة التي تستطيع أن تقودنا إلى هذا الإدراك⁽³⁾، هذا يعني أن التراجيديا، أو المأساة بالنسبة لنيتشه متعلقة بفهم الوجود، و تحديد معناه، و أن الإنسان اليوناني وحده من استطاع اكتشاف هذا البعد المأساوي للعالم، لأنه استطاع أن يوحد بين الفن والمعرفة، من خلال المزاوجة بين غريزة المعرفة، و الحياة ضمن تصور فني تراجيدي.

نيتشه يضع إجابة واحدة فقط لا ثانية لها يلخصها في قوله: « بأن وجود الكون، و العالم يبدو مبررا فقط باعتبارهما ظاهرة جمالية.»⁽⁴⁾، بمعنى أن نيتشه يقصي كل ما هو أخلاقي ديني عقلائي في محاولة فهم العالم كما أنه من خلال المبدأ الديونوسيوسي يُعطي قيمة للأشياء اللاأخلاقية، و التي من خلالها يمكن للإنسان أن يتجاوز العبثية التي تحكم العالم، و هذا من خلال التراجيديا على أنها يجب « تكون مقنعة لنا بأنه حتى البشاعة، و التنافر عبارة عن لعبة فنية.»⁽⁵⁾

(1) : فريدريك نيتشه، أفول الأصنام، مصدر سابق، ص14.

(2) : فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، مصدر سابق، ص 258.

(3) : لورانس جين وكيي شين، أقدم لك نيتشه، مرجع سابق، ص 21.

(4) : فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، مصدر سابق، ص257.

(5) : فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، مصدر سابق، ص257.

« الأسئلة التي تطرحها التراجيديا هي أسئلة لا يمكن الإجابة عنها بمنطق العقل، إنها أحجيات و معضلات.»⁽¹⁾ و بالتالي اللامنطق في النظرة المساوية للحياة هو الذي يجعلها تخلق اللذة من المعاناة من خلال الفن. ليعطي بذلك نيتشه الدور للذوق فما تقبل به ملكة الذوق وترفضه بمثابة أداة للمعرفة تتجاوز الحق و الباطل، و الخير، و الشر غير أنه ليس بوسعه تبرير المعايير الباقية للحكم الجمالي، لأنه يضع التجربة الجمالية في الأزمنة القديمة بتعبير آخر إنه لا يعترف بالملكة النقدية للتقييم التي شحذها الاحتكاك بالفن الحديث بمثابة لحظة للعقل الذي يظل مرتبطا على الأقل بسير التبرير القائم على الحجة بالمعرفة الموضوعة، و بالوعي الأخلاقيان. المجال الجمالي بوصفه انفتاحا على الديونيسيوسي في مقابل العقل.⁽²⁾

فلا يمكن تجاوز العدمية إلا من خلال الفن، لأن جميع القيم التي شيدها الإنسان الغربي من علم و أخلاق، و ديانة مسيحية انتهت إلى الإقرار بأن كل شيء باطل؛ و بالتالي فلا تأويل للعالم غير التأويل الجمالي، و هو تأويل يتقبل الإيمان بأهم معطيات الوجود: الألم و الوهم، و الإرادة، و يجد المتعة في كل ما هو ظاهر، و في تدمير الواقع، و في المظهر الجميل، و في الوهم، فالفن هو الوحيد القادر على إعطاء العيشة في وجه جمالي. فعظمة الفن تكمن في تبريره، و تبسيطه للوجود، و تسويغه للحياة.⁽³⁾

نيتشه يضع ثلاث تحولات كبرى للوجود الإنساني : الجمل ، الأسد ، الطفل. فالأول الذي يعرف فقط عبارة " نعم " يحمل على ظهره كل شيء بدون أن يقول "لا" لبعض الأشياء، وهذا ينطبق على رجال الدين. أما الثاني فهو الإنسان المتهور في الحياة يعرف إلا عبارة "لا" لعدم كل شيء يجده أمامه (فنيته يرفض العدمية السلبية)، أما الثالث فهو الفيلسوف الفنان الذي يعرف متى يقول "نعم" ومتى يقول "لا" ، فقد شبهه بالطفل لأن هذا الأخير يبني وفي الوقت نفسه يهدم وهكذا دواليك طبيعة الحياة عند نيتشه ، حياة اللهو، و اللعب، و المرح.

بهذا المعنى الجمالي للحياة أراد نيتشه أن يحطم كل مدلول دغمائقي أخلاقي، و يعطي لما دون ذلك قيمة، و بالفهم التراجيدي للوجود أعطى نيتشه مفهوما ثوريا للحياة، و للفعل الفلسفي ككل، لأن نيتشه أعطى قيمة للأشياء التي كانت تركز في زاوية اللاقيمة، و عاد بالفعل الفلسفي إلى المرحلة التي كثيرا ما وصفت بأنها تمثل الجانب الظلامي من الفكر اليوناني.

(1) : جان بيير فال وبيير فيدال ناكيه، الأسطورة و التراجيديا في اليونان القديمة، مرجع سابق، ص 32.

(2) : يورجن هابرماس، فلسفة القول الحدائي، مرجع سابق، ص 158.

(3) : محمد الشيخ، نقد الحدائفة في فكر نيتشه، مرجع سابق، ص 721.

و يمكن عد هذه المقاطع جملا موسيقية في سيمفونية نيتشواوية: الأسطورة تراجيديا، من المأساة تخلق الجمالية الحياة فن ، و الوجود؛ جمالية تتدفق من رحم المأساة.

يمكن القول أن نيتشه يملك حسا حضاريا دفعه إلى النظر في حالة الإنكار المطلق التي يعيشها الإنسان الغربي ، و الفكر العدمي الذي سيطر على الواقع الأوربي ، لا من أجل فترة يعيشها هو بل من أجل ولادة أوربا المستقبل بقيادة إنسان لا يعرف معنى الضعف بل القوة بكل ما تحمله من معنى . وما أحوجنا اليوم إلى مثل هذا ونظر في العدمية السلبية التي يعيشها الواقع الإسلامي رغم أن نيتشه أشاد بالدين الإسلامي لأنه رأى فيه العملية لكن الإشكال أين يكمن ؟ أي نوع من العدميات يعيشها الواقع الإسلامي ؟ هذا ما لم يجد إجابة لحد الساعة إذا كان الغرب أدرك أسباب العدمية السلبية التي يعيشها ، ووجد الخلل في الشيء الذي كان سببا في تطوره يوما ما ، حينما جابه الحقيقة الدينية بحقيقة أخرى يكون مصدرها الإنسان نفسه ؛ أي العقل أصبح السبب في تعرية الثقافة الأوربية من كل القيم الإنسانية ، ونحى بها منحأ أداتيا علماويا، يحيل بها نحو أحادية التوجه، أي نحو المادة نحو اللاروح ، نحو اللاإنسانية ، ولكي تنطو عن هذا قال نيتشه بأن عليها أن تتجه نحو الحياة ، نحو القيم الفاعلة، من خلال الفهم التراجيدي للحياة في ظل الفن، فهل وجدت فلسفة نيتشه مكانا لها في عالم اليوم ؟ هل يمكن النيتشواوية أن تحل إشكالات العالم الإسلامي رغم كل التعارضات التي بينهما ؟ كلها إشكالات قد تجد إجابات لها في ظل الفكر النيتشواوي .